دراسات كتابية وآبائية
Biblical and Patristic Studies

العمل الرعوي في حياة

البابا شنودة الثالث

اعداد
القمص تادرس يعقوب ملطي

العمل الرعوي

في حياة

البابا شنودة الثالث

مارس ٢٠١٢

Queen Mary and Prince Tadros Church

POPE SHENOUDA III CENTER

283 DAVIDSONS MILL ROAD

SOUTH BRUNSWICK, NJ 08831

إلى نفس أبي الطوباوي البابا شنودة الثالث.

إني أعلم أنه لا يشغلك الآن ما يُقال أو ما يُكتب عنك. ما يشغلك لقاؤك المجيد مع الله، وتمتعك بالشركة مع السمائيين والقديسين.

تتقدم إلى الله نفسك المحمولة بالملائكة والمتهللة بانطلاقها بسلام وفي مجدٍ، يُرحب بها السمائيون، ويدخلون بها إلى الفردوس السماوي!

نفسك التي تحدَّت ضعف جسدها المتألم، ولم تحطمها الآلام والضيقات والمتاعب،

الآن وقد تحررت وانطلقت إلى مخلص العالم، بروح التهليل، ودالة البنوة تطلب عن الكنيسة في العالم كله، بل وتطلب من أجل سلام البشرية كلها وخلاصها.

بحبك العجيب احتضنت برقةٍ وبحكمةٍ وببشاشةٍ الكثيرين حتى من الذين كنت تعلم أنهم يقاومونك، كم بالأكثر الآن تشتاق إلى سلامهم وخلاصهم!

الله الذي أعانك، يعين البشرية كلها!

في يوم وداعك لأبينا المحبوب القمص بيشوي كامل، قلت عنه إنه صاحب نفسٍ عظيمةٍ في جسدٍ متألمٍ. فماذا نقول نحن عنك يا صاحب النفس العظيمة؟!

اذكرنا، لكي يهب الرب كل إنسانٍ في البشرية نفسًا عظيمة متسعة بالحب مثلك، فتتحول أرضنا إلى سماءٍ جديدة، وبشريتنا إلى شبه السمائيين!

لن ننساك، وبالتأكيد أنت لا تنسانا أمام الرب محب البشر!

تبقى سمات حبك العجيب تمس قلوبنا، وتبقى بالأكثر عاملة فيك بعد عبورك أمام الرب، فتطلب عنا!

القمص تادرس يعقوب ملطي **القس مكاري مكرم عبد الملك**

أبريل ٢٠١٢

١

مواكب عجيبة!

لقاء الملايين

في يوم السبت ١٧ مارس ٢٠١٢ انتهت رحلة الآلام الطويلة التي عاشها قداسة البابا شنودة الثالث، وبدأت رحلة الأمجاد الظاهرة والخفية عن الأعين البشرية.

دُعيَت أيام الوداع التي عاشتها مصر برحيله إلى الفردوس "لقاء الملايين"، ضمّ هذا اللقاء من أغلب فئات المصريين، إن لم يكن من كل الفئات! ضمّ مسيحيين بكل طوائفهم ومسلمين، قادة وشعب. فقد كان رسول السلام في جهاده في عصرٍ عصيبٍ، ورجل سلام حتى في انتقاله من هذا العالم.

عبَّر الكل بكل قلوبهم عن حزنهم الشديد، يشاركهم في هذا الكثير من رؤساء العالم ومؤسساته بصورة فريدة وعجيبة.

محبته العجيبة للقيادات في الدول العربية، جعلت بعضًا منهم يقول إنه ليس بابا للأقباط وحدهم، بل هو بابا للدول العربية.

في وداعه، تزاحمت الجماهير حيث مات ثلاثة أفراد، وحملت ست عربات إسعاف الذين لم يحتملوا الزحام الرهيب. قال أحد المذيعين: لست أعجب إن فضَّل البعض الموت وهم يتزاحمون لنوال البركة من جثمانه!

حقًا الصورة الفريدة التي رأيناها في وداعه بعد رحلته من هذا العالم، هي ثمرة طبيعية لبذار الحب التي غرسها في حياته، فأثمرت حبًا.

مواكب عجيبة!

هذا الموكب تصحبه مواكب خفية. يحدثنا القديس يوحنا الذهبي الفم عن موكب خفي، إذ يعتقد أنه عند انتقال مؤمنٍ، يُرسل الله ملاكًا أو أكثر كمندوبين من السماء، يرافقونه رحلته إلى الفردوس، ويرحبون به، يسيرون معه، ليتعرف على الطغمات السمائية، ويرى العرش الإلهي ويتمتع بأمورٍ لا يُنطق بها. وكأنه يشارك الرسول بولس الذي ارتفعت نفسه إلى السماء الثالثة، ليرى ما لم ترَ عين، ويسمع ما لم تسمع به أذن، ويتمتع بما لم يخطر على بال إنسانٍ ما أعدَّه الله للذين يحبونه (١ كو٢: ٩).

بالأمس، إذ كنت أتحدث مع زوجة كاهن متنيح عن محبة البابا شنودة لزوجها الراحل، قالت لي إن الحديث عن محبته لزوجها الكاهن يحتاج إلى ساعات طويلة. وأظن أن كل من التقى به يقول نفس العبارة. إنه رجل الحب الحقيقي والإخلاص العجيب! كما قالت: "إني أشعر حينما انتقل قداسة البابا شنودة، استقبله البابا كيرلس بعبارته المشهورة: "تعال يا حبيب أبيك!"

٢

لقاء ممتع مع الله!

ما هو أعظم من هذا كله، فهو لقاؤه مع الله، الذي كرَّس حياته ومشاعره وكل طاقاته ووقته ليعبِّر عن محبته لله، متجاوبًا مع محبة محب البشر له!

تُرى بأية لغة يستطيع الإنسان أن يُسجل لقاء نفسٍ اتسعت بالحب، وكانت تشتهي سعادة كل من تلتقي بهم في العالم، وهي تسجد أمام الرب حين رأته وجهًا لوجه؟!

تُرى من يعرف سرّ هذا الحب الذي تلقفته هذه النفس من نعمة الله الخفية، تحتضنه وتحفظه وتعتز به ككنزٍ مخفيٍ، لا يدركه حتى المقربين جدًا إليها!

إنه يسمع الآن الصوت الإلهي: "كنت أمينًا في القليل، فأقيمك على الكثير" (مت ٢٥: ٢١).

حقًا، لقد أحب الكثيرين من المؤمنين وغير المؤمنين،

من الذين كانوا محبين له والمقاومين،

من العظماء والعلماء والمجهولين والبسطاء،

من الأقرباء له حسب الدم والأقرباء له بالروح.

من الذين عرفهم بأسمائهم والذين لم يعرفهم.

هذا الذي مارس الحب وهي في جسدٍ متألمٍ وضعيفٍ، الآن يتسع قلبه بالأكثر ليحب ويطلب ويسند، بعد أن تحرر من الجسد الترابي، ليتمتع به يومًا ما مُقامًا من الأموات!

رأينا ونرى وسنرى الذين كانوا يخدمون وهم في الجسد في هذا العالم، صاروا سرّ بركة بصلواتهم وحبهم للبشرية وهم أمام محب البشر!

حقًا ليس من إنسانٍ منذ آدم إلى مجيء ربنا الأخير من يتبرر أمام الله، فلكل إنسانٍ ضعفاته حتى العظماء من القديسين، بل والتلاميذ القديسين، لكن إذ تنطلق نفوسهم إلى الفردوس، لا يعانون بعد من احتياجات الطبيعة من طعامٍ وشرابٍ وراحةٍ واهتمامٍ بالصحة الجسدية، ولا من عدوٍ يقاوم، ولا من حربٍ للأفكار... ماذا يمارسون سوى محبة الله ومحبة القريب.

لقد طالبنا الرب ونحن في الجسد أن نحسب محبة القريب ملازمة لمحبة الله، كم بالأكثر حين ننطلق من الجسد، نعلن بالأكثر حبنا للبشرية ونحن نسبح الله مع السمائيين. تمتزج تسابيح النفوس البشرية بطلباتها من أجل سلام البشرية وفرحها في الرب ومجدها الداخلي!

٣

إنسان الله يتسم بمخافة الرب

أخبرني أبونا بيشوي كامل أن نيافة الأنبا شنودة أسقف التعليم طلب أن يأخذ بركة الكنيسة مساءً، ونكون نحن وحدنا في الكنيسة.

بالفعل ذهبنا إلى الكنيسة وكنا في انتظاره، وإذ جاء إلى الكنيسة ودخل فوجدنا في صحن الكنيسة، لم يشر حتى بيده إلينا، بل انطلق نحو الهيكل، وسجد ووقف يصلي، ودخل إلى الهيكل وقبَّله، ثم ذهبنا إليه.

بعد أن ترك الكنيسة قال لي أبونا بيشوي، حتمًا هذا التقليد الجميل أن يبدأ باللقاء مع الله خلال المذبح قبل أن يلتقي بأي إنسانٍ، استلمه من أحد الرهبان الشيوخ، وهو يحمل مخافة الرب.

منذ تلك اللحظة صار أبونا بيشوي يمارس هذا التصرف متى دخل أية كنيسة.

من كلمات أبينا قداسة البابا شنودة الثالث عن مخافة الرب:

[مخافة الله تعلم الإنسان حياة الحرص والتدقيق فيكون مدققًا في كل ما يعمله أو يقوله.

ويكون حريصا في كل ما ينوي أن يفعله، لأنه يخاف أن يسقط ويغضب الله. أما إذا لم توجد مخافة الله في القلب، فما أسهل أن ينطبق على هذا الإنسان المثل الذي يقول: إذا لم تستحِ، فافعل ما تشاء!

ومخافة الله تقود أيضًا إلى الجدية في الحياة الروحية، والي أن يكون الإنسان ملتزمًا وأمينًا حتى في القليل (مت ٢٥: ٢١، ٢٣؛ لو ١٦: ١٠؛ ١٩: ١٧)، ذلك لأن مخافة الله أمام عينيه علي الدوام.]

يقول القدّيس يوحنا الذهبي الفم: [مخافة الرب تحوي كل تلك المتطلبات (للفرح المستمر). لأن الإنسان الذي يخاف الرب كما يليق، ويثق فيه، يجمع كل مصادر السعادة، ويقتني الينبوع الكامل للبهجة. كما أن نقطة ماء تسقط في محيط متسع سرعان ما تختفي، هكذا مهما حلّ بمن يخاف الرب يتبدد ويزول في محيط الفرح الهائل. حقًا إنه لأمر عجيب للغاية، فإنه مع وجود ما يسبب الحزن تجد الإنسان متهللاً. فإنه إذ لا يوجد شيء ما يجلب حزنًا، فإن هذا المر يكون بلا قيمة عنده مقابل تمتعه بالفرح الدائم[1].]

[1] Concerning the Statues, homily 18.

٤

المتألم الذي يشارك المتألمين

في لقاءاته مع الكهنة كثيرًا ما كان يحثهم على الترفق بالمتألمين والمحتاجين، وكما نعلم كيف كان يحضر بنفسه في لجنة البرّ بالقاهرة والإسكندرية. إنما ما أدهش له ما حدث في الأسبوع السابق لرحيله، وهو في وسط آلامه الشديدة، ترى هل كان يشعر برجلٍ كرس حياته للكرازة بين الوثنيين مع إرسالية كاثوليكية. وإنني أترك أحد الأحباء بلوس انجلوس يسجل لنا ما حدث معه، وقد أعلن عن ذلك قبل نياحة البابا:

[في الصباح المبكر في ١١ مارس ٢٠١٢ استيقظت بعد حلم إنني ذهبت لزيارة البابا شنودة الثالث، وكان مريضًا جدًا في ذلك الوقت.

اتسم وجهه بابتسامة عريضة، وسلمني ورقة. كان على الورقة اسم شخص كتبه بحبرٍ أزرق. سألني أن أساعد هذا الشخص ماليًا. تطلعت إليه في شيء من التردد، وكنت أود أن أسأله إن كان هذا الشخص بالفعل محتاجًا إلى مالٍ، وقبل أن أنهي كلمتين من الجملة، أوقفني قائلاً: "اعطه ولا تعلق إن كان هذا الشخص محتاجًا أم لا. اترك الله هو الذي يدين، الأمر المهم هو أن تقدم له بقلبك. أما غير هذا، فليس من شأننا".

كنت على بُعد عدة أقدام قليلة من سريره، وإذا به يضع ذراعيه حول عنقي، ويقول: "هذا يكفي، لقد قمت بدوري من جانبي... لقد حان وقت رحيلي".

عندئذ عبر، لكن ذراعيه كانتا لا تزالا حول عنقي...

استيقظت وأنا أحاول أن أعيده إلى سريره. وكان ذهني مشغولاً، من هو هذا الشخص الذي يحدثني عنه البابا، وكنت حزينًا على رحيله.

في يوم الاثنين ١٢ مارس، جاءتني مكالمة تلاها e-mail من موظف سابق أخذ أسرته إلى إرسالية في جنوب أفريقيا، عبّر عن ضيقة حلّت به منذ خمسة شهور، أن الأسرة كانت تحاول أن تتأقلم مع الجو هناك، غير أنها دخلت في ضائقة مالية. ليس لديه مالاً وله ثلاثة أبناء في المدرسة. اعتذر لإتصاله بي، لكنه في حزن شعر بإحساس أن يتصل بي إن كان يمكنني أن أساعده.

في الحال خطر في فكري: كيف لا تهتم به الكنيسة هناك ماليًا؟ وفي دقائق تذكرت الحلم، وتحققت أنه هو الشخص الذي أرسل الله البابا شنودة يسألني أن أساعد هذه العائلة، وحسبت هذا شرف لي وبركة.

صورة قداسته في الحال صارت لا تفارق ذهني. لقد قدم لي أعظم درس في حياتي...]

٥

اهتمامه بالمرضى

مع اهتمام قداسته بخلاص النفوس، إذ يشعر أن عمل رجال الكهنوت أيًا كانت رتبتهم هو التقاء بكل إنسانٍ مع المخلص، للتمتع بالشركة معه. له قول مشهور إن الكاهن في افتقاده للبيت، يدخل ومعه الله، ويخرج وقد قدم الله في كل قلبٍ ليسكن فيه.

اهتمامه بشفاء النفس يتكامل بشوقه لشفاء أيضًا الجسد، فقد عُرف باهتمامه الخاص بزيارة المرضى حتى وهو بابا وبطريرك، كثيرًا ما كان يزور المستشفيات، ويسكب بصلواته وابتسامته وأحاديثه روح الرجاء في المسيحيين والمسلمين وأيضًا أحيانًا يزور المرضى في البيوت.

لن ينسى التاريخ كيف كسب قداسته الشيخ متولي الشعراوي في مرضه بلندن، خلال طلبه من الأقباط الاهتمام به، كما قام بزيارته عند عودته، وصار له صديقًا، هذا الذي كان قبلاً يهاجمه ويهاجم الكتاب المقدس والإيمان المسيحي. إن الحب الصادر عن القلب خاصة في وقت المرض والألم قادر أن يصنع عجائب.

عُرف برقته العجيبة، فلا يحتمل أن يرى إنسانًا وهو يأخذ حقنة للعلاج. كما تنساب دموعه حينما يرى إنسانًا باكيًا، لذلك كان يتحاشى مقابلته لإنسانٍ يبكي.

إن تدخل في مشكلةٍ ما، وبكى صاحب المشكلة حتى وإن كان مخطئًا، ينسحب قداسته إلى أن يتوقف الباكي عن بكائه. إنه يخشى أن يبكي أمامه، فيستغل الشخص دموع قداسته.

يذكر القديس غريغوريوس النزينزي في مقاله عن القديس باسيليوس أن القديس كان يفتقد المستشفى باستمرار، وأن من بين نزلائها بعض المرضى المصابين بالبرص. كان بعض الرهبان يخدمون في المستشفى[1].

[1] Oration 43.

٦

باعث الفرح للكثيرين

إذ أراد الرئيس الراحل أنور السادات أن يحدد إقامته في مقره في دير الأنبا بيشوي، وكان الجيش يحاصر الدير، إعتاد اللواء نبيل عيطة المسئول عن كل شئون الأقباط في المخابرات العامة أن يقوم بزيارته.

قال قداسته إنه كان يحول لقاءه معه إلى جلسات مُفرحة، حتى قال له اللواء: "ما ضحكته في حضورك لم أضحكه في كل حياتي".

إنه يعرف كيف يكسب الكثيرين ببعث روح الفرح في حياتهم.

عندما سُمح بالزيارات لقداسته، كان الكثيرون في البداية يستصعبون أول لقاء لهم معه في مقره تحت الحراسة المشددة! لكنهم كانوا يفاجئون بسلامه الداخلي وثقته في عمل الله، وتحويل كل الأمور للخير، وكانت جلساته مصدر فرح عجيب مع كل من يلتقي به.

في حديثٍ له مع مجموعة من الكهنة، قال: في لقائي مع أي رئيس دولة كانت جلساتي معهم يسودها الفرح وروح المداعبة. الوحيد الذي كان جامدًا لا يضحك هو الرئيس الليبي السابق القذافي. ومع هذا في إحدى لقاءاته مع الرئيس السايق حسني مبارك همس معه قائلاً: "ماذا يريد القذافي منك؟ دائمًا يسألني عنك؟"

يدعونا القديس باسيليوس الكبير إلى حياة الفرح والهتاف كما يحذرنا من الحزن المفرط لأنه يُفسد العقل. [الهتاف صرخة غير منطوقة، يتفق عليها جميع المحاربين ويطلقونها بنفس واحدة، وقد ارتبطوا جميعًا برباط المحبة[1].] [لا تُحبط، فإن الحزن الزائد يصير مصدرًا للخطية. **يفيض الحزن على العقل (فيفسده)**، يسبب العجز ارتباكًا، ويولِّد الاضطراب أفكار جحودٍ[2].]

---

[1] تفسير المزمور ٣٣ (٣٢).

[2] In the Time of Famine and Drought, 5.

٧

اهتمامه بالأطفال

في أثناء زياراته كان كثيرون يطلبون منه أن يقوم بتعميد أطفالهم.

في إحدى زيارته لكنيسة مار مرقس بلندن، إذ ازدحمت حجرة المعمودية جدًا طلب أن يحضر العماد أهل المعمدين فقط، حتى يمكن القيام بالعماد. فخرج البعض وكان من بينهم طفل.

في زيارته التالية قيل له إن طفلاً ظن بأن قداسته لا يحبه، لأنه أخرجه من حجرة المعمودية. فطلب إحضار الطفل. اهتم به وصار يلاطفه، وكان يتحرك من مكانٍ إلى آخر وهو ممسك بيده. بعد سفر قداسته، قال الطفل لأصدقائه باعتزازٍ: "قداسة البابا يحبني جدًا".

هكذا كان يحرص على مشاعر الأطفال، حتى يروا فيه صورة الله محب البشر!

حقًا كان حازمًا جدًا مع رهبة عجيبة، ومع هذا يداعب الأطفال. يحب أن يجلس معهم بدون شكليات أو رسميات.

أذكر في الستينات دعا بعض أمناء التربية الكنسية والكهنة لدراسة الاهتمام بنشر كتب ومطبوعات خاصة بالطفل. فكان في حديثه يدعو الحاضرين إلى دراسة الاهتمام بتقديم للأطفال الفكر المسيحي بما يناسب العصر والتكنولوجيا الحديثة. فإن كان قد سام أسقفًا خاصًا بالشباب وهو نيافة الأنبا موسى. فإن أحد الفروع الهامة لخدمة الجيل الجديد هو خدمة الأطفال.

في زياراته لمعارض الكتاب كان يطلب نسخة من كل ما نُشر للأطفال حتى الأعمال غير المسيحية.

إني أشعر أن من أهم ما يلزمنا أن نقدمه في أعياد نياحته، لا أن نتكلم عنه، بل بالأكثر أن نحقق شهوة قلبه في المسيح يسوع، فنُقام حلقات دراسية للخدمة لكل المراحل من الطفولة حتى الشيخوخة، وإن أمكن تقديم جوائز باسمه لأفضل الأعمال التي تُقدم!

٨

تقديره لمن له مبادئ!

في جلسة هادئة بدير السريان (السيدة العذراء) بعد عودتي من أمريكا في عام ١٩٧٢م، وكان قد سيم البابا شنودة الثالث، وكان يعلم أن أبانا الحبيب بيشوي كامل كان ينادي بأن يُختار البابا البطريرك من الرهبان، ولم يكن يستريح أن يُختار من الأساقفة العموميين، وكان الأنبا شنودة أسقف التعليم ينادي بأنه يمكن اختياره أيضًا من الأساقفة العموميين. قال لي: "إني أحب أبانا بيشوي كامل وأقَّدره، لأنه حين قاد حركة عدم اختيار البطريرك من الأساقفة العموميين، قام بذلك ليس عن مقاومة شخصية لي أو لغيري، وإنما عن مبدأ يؤمن به، وأنا أحترم من يدافع عن مبدأ ولا يقصد أشخاصًا معينين!"

وكان لأبينا بيشوي مكانة خاصة لدى غبطته خلال كل فترة حياته، وعند انتقاله حضر بنفسه جنازته، وعبَّر عن حبه وتقديره له. ولسنوات طويلة كان يفتتح بنفسه أسبوع الاحتفال بعيد نياحة أبينا. وفي كل مناسبة يُذِكر اسم أبينا، كان يكشف عن تقديره له سواء في حياته أو خدمته أو عبادته.

٩

نفس عظيمة متواضعة!

أبي الحبيب...

ما يشغلني بالأكثر ليس شعبيتك العجيبة على المستوى الدولي، فأحبَّك الكثيرون حتى رؤساء العالم وكبار المسئولين، ولا إعجاب القيادات الكنسية المسكونية بك، ولا دورك العجيب في الحفاظ على وحده الوطن المصري بالرغم من الظروف القاسية التي مرَّت بها مصر، وكان يمكن أن تهزها الأحداث الطائفية المتوالية ولفتراتٍ طويلة! إنما ما يشغلني الآن نفسك العظيمة المتسعة بالحب، التي تسعى لخلاص الكثيرين.

صديق مخلص وعجيب!

مع ما لشخصية أبينا المحبوب من جاذبية على المستوى الجماعي؛ أينما وُجد ينجذب إليه الكثيرون، ولا يمِلْ أحد من كلماته. لا أنسى ما قاله Prof. Dr. Roberson رئيس قسم القبطيات جامعة بكاليفورنيا Clarmont في نهاية حديث قداسة البابا: "لم تشهد هذه القاعة إنسانًا يتحدث لمدة حوالي ساعتين، ولم يمِلْ أحد من حديثه كما حدث اليوم!"

إنما العجيب حين يلتقي مع إنسانٍ، خاصة إن كان بمفرده يشعر الإنسان أيًا كان سنه أو عمله أو قدراته، أنه يتحدث معه كما في جوٍ عائلي في بساطةٍ وحبٍ وانفتاحٍ!

يقف الإنسان في دهشة هل يتحدث مع عملاق في الروحانية والحكمة والمعرفة والوقار، أم مع طفلٍ بسيطٍ رقيقٍ وديع ومتواضع!

أذكر على سبيل المثال:

١. قام شاب صغير السن من الإسكندرية بزيارته وهو أسقف للتعليم الكنسي. بعد أن تحدثا معًا استأذن منه، وبعد دقائق فوجئ الشاب بنيافة الأنبا شنودة يعود حاملاً صينية عليها طعام، وقدمه له، حتى لا يعود الشاب جائعًا! هذا المنظر تكرر معه ومع غيره.

٢. كان غبطته قبل رهبنته لديه صديق أصغر منه سنًا، كانا صديقين وهما شابان. وبسبب ظروف كنسية أخذ الشاب منه موقفًا شبه عدائي، وكان كلما رآه بعد رسامته أسقفًا للتعليم في البطريركية، يعطيه الشاب ظهره، ولا يذهب للسلام عليه. سمع نيافة الأنبا شنودة أن الشاب قد أصيب بمرضٍ خطيرٍ، فذهب إليه في منزله وقضى معه ساعات يلاطفه، بل وكان يتردد عليه ويقوم بنفسه بخدمته حتى شُفي الشاب، فعاد الشاب إلى صداقته، والتهب قلبه حبًا نحوه!

٣. منذ حوالي عام قال قداسته لتاسوني ماري: "أنا مدين لأبونا..."، فدُهشت لقوله هذا. أكمل حديثه معها: "لقد أعطاني كتابًا لمراجعته وأنا راهب"، ولم أكن بعد قد رُسمت كاهنًا. أكمل حديثه، قائلاً: "وإلى الآن لم أراجعه!" هكذا في تواضعه العجيب، يتذكر إنني أعطيته كتاب لمراجعته منذ ٥٠ عامًا أو أكثر. هذه اللمسات تكشف عن محبته وتدقيقه العجيب!

٤. منذ شهور جلست معه على انفراد، وإذ كنت أشعر بتقصيري، قلت له: "أريد أن أعترف بشيءٍ... أشعر أنني مقصر جدًا في كل خدمتي، وأنا أخذت مكانًا كان يمكن غيري أن يأخذه للخدمة. مش عارف أقول لربنا إيه؟!" وصُعقت حين أجابني: "أمال أنا أقول إيه!" هذه هي أحاسيسه الداخلية في تواضعه، فلم يشغله مركزه ولا شعبيته في كل العالم ولا كلمات المديح عن انسحاق قلبه أمام الله، وإن كان بروح الرجاء.

كانت عبارته المشهورة عند تدشين أية كنيسة أو سرد البعض أعماله الرعوية: "الغير يتعبون ويعملون، وأنا آخذ المديح!!"

في جلساته الخاصة مع كثيرين يردد مثل هذه العبارات، إذ يشعر أن ما يُنسب إليه من أعمال رعوية وإقامة خدمات هي ثمر تعب الكثيرين، وانها تُنسب إليه، لأنها تمت في عصره.

٥. بعد اختياره بطريركًا في السنوات الأولى، أذكر في جلسة مع مجموعة صغيرة، قال: "ما يحكم به الإنسان هو في الخارج منتقدًا الغير، لا يدرك حقيقته إلاَّ حين يوضع في مكان الغير". كان بهذا يقصد نفسه، فحين صار بطريركًا أدرك بعض تصرفات قداسة البابا كيرلس السادس، التي لم يكن يدرك موقفه إلاَّ بعد أن صار هو في مكانه.

من كلماته عن التواضع:

[**الاتضاع** هو السور الذي يحمي الفضائل ويحمي المواهب، وكل فضيلة خالية من الاتضاع، عرضة أن يختطفها شيطان المجد الباطل، ويبددها الزهو والفخر والإعجاب بالنفس .

لذلك إذا أعطاك الله موهبة من مواهبه، ابتهل إليه أن يعطيك معها اتضاعًا، أو أن يأخذها منك، لئلا تقع بسببها في الكبرياء وتهلك. الاتضاع إذن هو الأساس الذي نبني عليه جميع الفضائل.]

[لتعرف من أنت؟ إنك من تراب الأرض، بل التراب أقدم منك. كان قبل أن تكون، خلقه الله أولاً، ثم خلقك من تراب.]

[كانت الوداعة هي صورة المسيحيين منذ البدء. حتى إنه قيل عن روحيات المسيحيين في العصر الرسولي: إنه حينما كان أحد الوثنيين يقابل زميلاً له، ويجده بشوشًا هادئًا... يقول له: "لعلك قابلت مسيحيًا في الطريق"! ويقصد بذلك أن لقاءه مع أحد المسيحيين في وداعته، يكون قد طبع الوداعة على وجهه بالتأثير.]

١١

فحصه للأمور وعدم تصلبه في الرأي

في اجتماع للآباء الكهنة بالإسكندرية برئاسته، فُتح موضوع الزيت الذي كان ينزل من يدي فتاة، وكان الزيت ينزل أحيانا بعد تناول جسد الرب وقبل تناول الدم، فتخرج من الكنيسة، ويخرج وراءها كثيرون.

قال كاهن: يا سيدنا هذا من عمل الشيطان!

قال غبطته: وهل الشيطان يخلق زيتًا؟

روى الكاهن قصة عائلة بأرمنت كان لديها فتاة خادمة تقية في البيت، تصلي في نصف الليل، وتخرج من الحجرة ومعها قربانة وقطن وزيت، وتقول إن القديسة مريم تظهر لها وتعطيها هذه الأشياء. قام المتنيح أبونا متى روفائيل الكاهن بكنيسة الأم دولاجي باسنا بالصلاة (مسحة المرضى) في البيت ورشه بالماء، وطلب منها متى ظهرت لها القديسة مريم وأعطتها قربانة وزيت وقطن أن تصرخ: يا قديسة مريم أعينني!

في نصف الليل حدث ذلك، وإذ بالبيت يمتلئ نورًا، وتظهر القديسة مريم، وتقول للفتاة إن التي كانت تظهر لكِ شيطان وهو يسرق الزيت من البيت هنا لأن ربة البيت لا ترشم الصليب وهي تستخدمه، والقربان من الكنيسة لأن القرابني لا يصلي المزامير وهو يصنع القربان، والقطن من الأجزخانة القريبة... ومند تلك الليلة انقطع ذلك تمامًا. بدأ كثير من الكهنة يتحدثون عن قصص الزيت المضللة.

لم يأخذ غبطته موقفًا متشددًا، بل قال قداسته بهدوء: لا داعي لعمل بلبلة، ومن جهتي لا اسمح بنشر مثل هذا الأمر في الكرازة حتى نتحقق من الأمر.

بعد فترة قال لي أحد الأساقفة المقربين من سيدنا، إنه قال له بأنه تأكد أن هذا الزيت فيه خداع!

هنا أشعر الالتزام بتكريم قداسة البابا الذي بحكمة عالج الأمر، بغير تصلب في الرأي، وأعطى الفرصة لبحث الأمر، ولم يحسب أن تنازله عن رأيه فيه إهانة. إنه درس عملي روحي وحكيم لكل قائدٍ سواء بين رجال الكهنوت أو التربية الكنسية أو في العائلات.

تكرر الأمر بخصوص ادعاء نزول زيت من شجرة بدير الأنبا أنطونيوس بكاليفورنيا. تحدث مجموعة كهنة من لوس أنجيلوس معه عن هذا الأمر. قال لهم قداسته: لن أنشر شيئًا عن هذا الزيت!

بحق يُحسب هذا البابا نموذجًا لرجال الكهنوت والقادة الكنسيين، إذ يليق بالإنسان البحث في الأمور، وتراجعه عن رأيه لا يشوب شخصيته، بل فيه فكر مسيحي وديع حيّ!

أذكر أكثر من شخص قام البعض ممن يثق فيهم قداسة البابا بتشويه صورتهم، وعندما أدرك قداسته

ذلك استطاع بحكمته ولطفه أن يكسبهم. قال أحدهم لي بعد أن التقى معه: بالحق إنه أب عجيب، لم أكن أتخيل أنه يعاملني بهذا الحب!

كان خلال إخلاصه في حياته يبذل كل الجهد ويهتم بدراسة كل أمرٍ بعمقٍ. حينما كان مزمعًا لزيارة ليبيا كمثال، طلب من السفارة الليبية بالقاهرة كل ما لديهم من كتب ومنشورات خاصة بليبيا. عندما وقف يتكلم في حضور الرئيس السابق القذافي، دهش الرئيس من أجل معلوماته الدقيقة والفياضة من جهة دولة ليبيا، التي ربما لم يكن يعرفها بعض القادة الليبيين أنفسهم.

١٢

حكمته في معالجته للأمور

في جلسة مع شاب غالبًا كان في بيت الخلوة بدير السريان، وكان قداسته أسقفًا للتعليم الكنسي، اشتكى الشاب أنه يخاف من الظلام، فلا يستطيع أن يسير في مكانٍ مظلمٍ.

بدأ يحدثه عن عدم الخوف، ثم ناقش بعض الأمور الروحية. بعد فترة قال له: تعال معي داخل الدير غالبًا في المضيفة. وإذ جلس الاثنان، قال له: محتاج إلى كذا على المكتب في قلايتي. خذ المفتاح، أرجو انك تحضر لي هذا الأمر.

أخذ الشاب المفتاح وانطلق وهو مرتعب، خاصة وأن القمر كان منيرًا، وظلال أشجار الحديقة كثيرة وقلاية نيافته بعيدة. في رعب تسلل وهو يتخيل أن أحدًا قد يكون مختفيًا وراء الشجر.

عند عودته قال له نيافته: ماذا حدث لك؟ لقد سرت وسط الظلال وعدت بالسلامة... درب نفسك أن تتحدى الخوف، فسيهبك الله سلامًا في فكرك!

١٣

لا يعرف الخوف

قيل إنه في بدء تعيينه مدرسًا، كان يعيش مع بعض زملائه في قرية أو ضاحية بعيدة، لم تدخلها الكهرباء. وإذ عُرف عنه أنه لا يخاف، أراد زملاؤه أن يرعبوه، ففي يوم خميس، قالوا له إنهم سيقضون العطلة الأسبوعية في المدينة، وتظاهروا بأنهم أخذوا بعض أدواتهم وتركوه.

في منتصف الليل في وسط الظلام حاولوا إزعاجه بالطرق على شباك الحجرة التي على الشارع والاختفاء، فكان يخرج ولا يجد أحدًا.

فجأة لاحظ أن نور "اللمبة الجاز" يرتفع تدريجيًا وهو على السرير، فيمد يده ويجعل النور ضعيفًا حتى ينام. تكرر الأمر، فأخذ يراقب الموقف فلاحظ يدًا تظهر من تحت السرير وتمتد إلى اللمبة لتزيد من الضوء.

بدون خوف أمسك باليد، ثم قام وتطلع تحت السرير، فوجد أحد زملائه قام بذلك لكي يرعبه!

١٤

الله يعمل به

١.إذ كان مع أبينا المحبوب القمص بيشوي في الطريق إلى كنيسة مار جرجس بسبورتنج خلال شارع بورسعيد، فجأة وبدون سبب، وهو في زاوية شارع متقاطع مع شارع بورسعيد، قال لأبينا: "خلي بالك، وشدَّد في الطلب". قال لي أبونا: دهشت لذلك، إذ لم أعرف السبب. في اليوم التالي إذ اقتربت من التقاطع تذكرت كلمات نيافته، فهدأت السرعة، وأنقذني الرب من حادث كان حتمًا سيتحقق لو لم أهدئ السرعة.

٢. مثل آخر من عمل الله به، اتصل بي إنسان كان لا يطيق اسم قداسة البابا، وكان يهاجمه بعنفٍ، قال لي إن ابنه مصاب بلوكيميا وكان ذلك في نهاية السبعينات، طلب مني أن أسأل قداسة البابا أن يصلي من أجله.

كنت استعد للذهاب إلى دير الأنبا بيشوي، وإذ التقيت بقداسته، أعطيته اسم الابن واسم العائلة ولم أذكر اسم الأب حتى لا يعرف أنه ابن هذا الشخص. قلت له إن والده عنده إيمان إن صليت من أجله ربنا يشفيه. تأثر جدًا، وقال لي أنا ذاهب طبيعي لصلاة القداس الإلهي، وأخذ اسم الشاب باهتمام شديد.

بعد حوالي أسبوع اتصل بي والده وسألني عما حدث فأخبرته. قال لي: جاء التحليل هذا الأسبوع وليس فيه أي أثر للمرض حتى دهش الأطباء. ومند هذا اليوم صار يحب قداسته للغاية، ولا زال هذا الابن يعيش غالبًا حتى الآن.

١٥

الاهتمام بخدمة المهجر

انطلقت خدمة المهجر في عصر قداسة البابا كيرلس السادس. وفي عهد الرئيس جمال عبد الناصر كان يُنظر إلى المهاجرين أنهم خونة، وكان كل من يهاجر يضع في قلبه إنه لن يرى أرض مصر مرة أخرى، ولن يلتقي بأهله إلاَّ في إحدى بلاد أوروبا أو لبنان، الأمر الذي سبب أزمات نفسية خاصة لبعض الزوجات. كما كانت الدولة تتطلع إلى الذين يمثلون الكنيسة في المؤتمرات الدولية المسيحية بعين الشك وعدم الارتياح، حتى بالنسبة لنيافة الأنبا صموئيل أسقف الخدمات والمسكونيات الذي كثيرًا ما كان يخدم الدولة في الخارج.

لم يكن من السهل أن تقوم الكنيسة الأم بإرسال كهنة للخدمة في الخارج، سواء كهنة للخدمة في الغرب في أوروبا أو أمريكا أو البرازيل وأيضًا في الشرق في أستراليا.

لقد جلس قداسة البابا شنودة الثالث على كرسي مار مرقس، وكان عدد الكهنة في خدمة المهجر ستة، إثنان في كل من أمريكا وكندا وأيضًا في أستراليا.

أول مؤتمر انعقد لكهنة المهجر كان أعضاؤه أربعة كهنة.

أذكر أحد الخدام بسياتل عندما ذهبت سنة ١٩٧١م لأصلي القداس الإلهي لشعب سياتل وبورتلاند والبلاد المحيطة بهما، قال لي إننا لم نكن نحلم أن يوجد كاهن في لوس أنجيلوس يذكرنا على المذبح الإلهي، والآن يُقام قداس في سياتل! هذه هي مشاعر الأقباط في أغلب الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت.

خلال حبرية قداسة البابا كيرلس نيح الله نفسه، لم يكن من السهل افتقاد البابا أو أحد الأساقفة لرعاية الشعب هناك ولو إلى أيامٍ قليلة. لم أذكر خلال خدمتي بلوس أنجيلوس لمدة سنتين و٣ شهور وبنيويورك أن رأيت أسقفًا سوى قداسة بطريرك السريان مار أغناطيوس يعقوب وأسقف السريان بنيويورك، اللذين زارا كنيستنا القبطية، واستقبلهما الشعب بفرحٍ عجيبٍ. وبعد نياحة البابا كيرلس السادس قام القائم مقام الأنبا أنطونيوس والأنبا صموئيل بجولة سريعة بأمريكا. أما الآن عند نياحة البابا شنودة الثالث، فقد صار لنا أربعة أساقفة مقيمين بأمريكا وثلاثة أساقفة بأستراليا وأسقفان بأمريكا الجنوبية وأساقفة بأوروبا وأسقفان في جنوب أفريقيا وكينيا، الخ. أما عدد الكهنة في أمريكا وحدها فيزيد عن المائتين.

أما عن مدى اهتمام قداسة البابا شنودة بالخدمة في المهجر، فأرجو أن أنشر تأملات ومذكرات كاهن بأرض المهجر الذي سبق نشره عام ١٩٧٢، والجزء الثاني الذي لم يسبق نشره، كتبته في أواخر التسعينات بناء على طلب قداسة البابا شنودة، إذ يضم الكثير من تفاصيل الخدمات في ذلك الحين مع عرض لما نرجوه بالنسبة للخدمة بالمهجر.

اهتم بسيامة كهنة من الشباب، خاصة في أمريكا، إذ كان يهتم بنمو الكنيسة في المهجر بالتركيز على سيامة كهنة مولودين في بلاد المهجر.

عندما قيل عنه إنه جعل الكنيسة القبطية من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها، علّق على ذلك بقوله: لم يتم ذلك بعد، فإنه توجد مناطق لم نرسل إليها كارزين.

١٦

اهتمامه بالحركة المسكونية

يحمل في قلبه شوقًا حقيقيًا نحو وحدة الكنيسة في العالم كله، لا تقوم هذه الوحدة على مجرد شركة مندوبي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في الكثير من مجالس الكنائس المسكونية على مستوى العالم ككلٍ، والشرق الأوسط الخ، واختياره أحد رؤساء مجلس الكنائس العالمي وغيره من المجالس.

قام بزيارة أغلب الكنائس الأرثوذكسية، مثل الكنيسة بروسيا وكنيسة الأرمن، وأيضًا بزيارة بابا الكنيسة الكاثوليكية السابق. وأعطى اهتمامًا خاصًا بالكنيسة الأثيوبية وكنيسة أريتريا الخ.

وفي عهده تمت كل الحوارات اللاهوتية مع الكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية على أساس مفاهيم مشتركة لاهوتية، ومن جانبه قاد المجمع ليعلن أن أية كنيسة أرثوذكسية خلقيدونية نرحب بها ونتعامل معها حسبما تريد وبنفس معاملتها لنا.

إنه كان دائمًا ينتظر القرار الكنسي الرسمي من مجمع الكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية، هذا ويمكننا القول أن بطاركة هذه الكنائس يكنون حبًا خاصًا لقداسته.

أذكر ما قاله الأستاذ الدكتور ديفاس الذي كان من أهم اللاهوتيين لهذه الكنائس، ما قاله لي: نحن الآن نشعر إنكم أقرب إلينا في وحدة أكثر من وحدتنا نحن فيما بيننا ككنيسة أرثوذكسية خلقيدونية.

إن قلب البابا شنودة الثالث الذي يشتهي وحدة الكنيسة له دوره الفعّال في حياة مندوبي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في حواراتهم المسكونية مع الكنائس الأخرى.

ابسط يمينك وبارك جمعنا

إن كان السيد المسيح بمسرة ينتظر كهنته الأمناء، ويهبهم أن يخدموا في الفردوس على مستوى ملائكي. هذه الخدمة تدفعهم بالأكثر لخدمة البشرية. **عبورهم من العالم إلى الفردوس، لن يُحَطِّم حبهم للبشرية، ولا يُفقدهم شوقهم لخلاص العالم، بل يلهبهم بالأكثر نحو الصلاة من أجلهم.**

وإنني أستعير ما كتبه القديس مار يعقوب السروجي بمناسبة رحيل كاهنٍ تقيٍ:

❖ يا صاحب الأقداس، ابسط يمينك وبارك جمعنا، لأنهم حزنوا لفراقك عنهم.

ابسطْ يمينك أيها الكاهن المُبارَك، وبارك أبناءك، فإنهم يرافقونك بالصلوات والخدمة.

قِفْ على المنبر، وأسمِع كلماتك اللذيذة، فهوذا قطيعك ينصت إليك ليسمع تعليمك.

ارفع صوتك كعادتك وباركهم، فها هم يتطلعون إليك، لينالوا منك البركات.

أيها الراعي الصالح، ادعُ قطيعك لدى ينبوعك، وافتح شرابك واسقِهِ منه، لأنه محبَّبٌ له.

أعطِ السلام للمذبح المقدس الذي كهّنتَ فيه، فها هو يلبس الحِداد على فراقك من عِشرته.

بارك أولاد المعمودية، الذين ختمتهم بعُملة بيت الله التي لا تُمحَى.

بارك الشيوخ، الذين تأهَّلوا للشيخوخة بوقارٍ، واختم الشباب، الذين ربيتهم على الحكمة.

والأطفال والصبيان والأجنة المحبوبون الذين ولدتهم كنيستك يا سيدي، ليُحفظوا بصلواتك من الضيقات.

بصلواتك بارك شعبك الذي يُكرِّمك، ليكون أمان الرب سائدًا عليهم من الآن وصاعدًا.

أعط السلام للكنيسة، أم كل قطيعك، فها هي تبكيك، لأن الموت فصلك عن رعيَّتك.

افتح شفتيك المقدستيْن، وأعط السلام للكهنة الأبرار والإخوة المحبوبين، أبناء خدمتك.

أوصهم وحذِّرهم وثبِّتهم، ليسيروا في العالم في طريق الإيمان المستقيم.

توسَّل إليهم ليذكروك في الصلوات، ليكون ذكرك (حاضرًا) عندما يكهّنون القدس للرب[1].

القديس مار يعقوب السروجي

وداعًا يا أبي!

إذ كان يعقوب في ضيقة، هاربًا من وجه أخيه عيسو، ليس من أبٍ أو أمٍ أو إنسانٍ يسنده، رأى سُلَّمًا منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، ورأى الرب واقفًا عليها كمن يُرَجِّب به (تك ٢٨: ١٢). الآن، يرى القديس السروجي الرب ينتظر على باب الملكوت ليُرَحِّب بالكاهن التقي الأمين في إضرام

[1] الميمر ٧٠ على تعزية الكهنة (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني)؛ الخوري بولس الفغالي: يعقوب السروجي من ملكيصادق وهرون إلى يسوع المسيح، ٢٠٠٩، ص ٤٩-٥١.

المواهب والوزنات التي سلَّمها له. يُهَنِّئه على انتقاله، فلم يعد يخدم على مذبح مُقام على الأرض، إنما يقف ليخدم عن يمين يسوع ربِّه، مُقدِّمًا له مكافأة عظيمة.

❖ اذهب بسلام يا كاهننا البهي والمملوء بالصدقات، ها قد هُيأت لك مائدة الحياة في الملكوت.

اذهب أيها الموقر، الذي خدم أسرار بيت الله، هوذا ربك ينتظرك على باب الملكوت.

اذهب بسلام وببهجة الوجه إلى خدر النور، فهوذا المذبح المقدس الذي خدمته ينتظرك.

اذهب وقم واقبل تلك اليمين (يمين الشركة غل ٢: ٩) التي سُلمت إليك، فها هي تُعطى لك في أقداس النور والروح.

اذهب وقف واخدم عن يمين يسوع ربِّك، فهو يتذكَّرك عندما يوزع هدايا أقداسه.

اذهب بسلام وطمأنينة أيها الكاهن المملوء فهمًا، لأن ابن الله يكافئك حسب أعمالك[١].

القديس مار يعقوب السروجي

[١] الميمر ٧٠ على تعزية الكهنة (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني)؛ الخوري بولس الفغالي: يعقوب السروجي من ملكيصادق وهرون إلى يسوع المسيح، ٢٠٠٩، ص ٤٩.

المحتويات

العمل الرعوي ٢
في حياة ٢
البابا شنودة الثالث..... ٢
١ مواكب عجيبة! ٤
لقاء الملايين ٤
مواكب عجيبة! ٤
٢ لقاء ممتع مع الله!..... ٥
٣ إنسان الله يتسم بمخافة الرب..... ٦
٤ المتألم الذي يشارك المتألمين ٧
٥ اهتمامه بالمرضى..... ٨
٦ باعث الفرح للكثيرين..... ٩
٧ اهتمامه بالأطفال ١٠
٨ تقديره لمن له مبادئ!..... ١١
٩ نفس عظيمة متواضعة!..... ١٢
صديق مخلص وعجيب! ١٢
١١ فحصه للأمور وعدم تصلبه في الرأي ١٤
١٢ حكمته في معالجته للأمور ١٦
١٣ لا يعرف الخوف..... ١٧
١٤ الله يعمل به..... ١٨
١٥ الاهتمام بخدمة المهجر ١٩
١٦ اهتمامه بالحركة المسكونية ٢١
ابسط يمينك وبارك جمعنا ٢٢
وداعًا يا أبي!.....٢٢

إني أعلم أنه لا يشغلك الآن ما يُقال أو ما يُكتب عنك.
ما يشغلك لقاؤك المجيد مع الله،
وتمتعك بالشركة مع السمائيين والقديسين.
اذكرنا، لكي يهب الرب كل إنسانٍ في البشرية
نفسًا عظيمة متسعة بالحب مثلك،
فتتحول أرضنا إلى سماءٍ جديدة،
وبشريتنا إلى شبه السمائيين!
لن ننساك،
وبالتأكيد أنت لا تنسانا أمام الرب محب البشر!

القمص تادرس يعقوب ملطي

KEROLLOUS MAGDY